في المعنى الوظيفي لمفهوم الإنسان الكامل عند ابن العربي في منظور الشيخ عبد الباقي مفتاح

د. زهير بن كتفي
جامعة الوادي – الجزائر

Benketfi-zouhir@univ-eloued.dz

الملخص:

سعت هذه الورقة البحثية لمحاولة بيان المعنى الوظيفي للإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، وذلك من خلال منظور وقراءة الشيخ عبد الباقي مفتاح لها. وهذا من أجل تحقيق جملة من الأهداف الأساسية والتي من أهمها إعادة وضع موضوع الإنسان الكامل في رؤية ابن العربي في سياقه الصحيح، والذي هو أساسا المرجعية القرآنية والسنة النبوية وتراث كبار العارفين بالله، بعيدا عن المرجعية الفلسفية والدينية القديمة وجميع التأويلات المقحمة والمتعسفة في فهم هذه القضية. بالإضافة إلى الكشف عن المعاني الوظيفية للإنسان الكامل الوجودية والمعرفية والأخلاقية وغيرها، خاصة في هذا الراهن الذي نعيشه اليوم وتعيشه الإنسانية جمعاء، إذ يبدو الحديث عن هذا المعنى الوظيفي لمفهوم وحقيقة الإنسان الكامل أكثر من ضروري في سبيل إعادة تحديد حقيقة وماهية الإنسان وإنارة السبيل حول طريقه وانتشاله من أشكال الضياع والاغتراب الوجودي والتردي الذي آل إليه وضعه في الواقع المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الوظيفية - الإنسان – الكامل –- ابن العربي – عبد الباقي مفتاح

Abstract

This paper has sought to elucidate the functional meaning of the perfect human being in Ibn al-Arabi's vision, through the perspective and reading of Shaykh 'Abd al-Baqi Muftah. This is to achieve a number of basic purposes, the most important of which is to transpose the subject of the perfect human being in Ibn al-Arabi's vision in its proper context, which is mainly the Qur'anic reference, the Sunnah of the Prophet and the heritage of the great Soufis. This would be undertaken away from the ancient philosophical and classical religious reference and all arbitrary interpretations in elaborating this topic. Furthermore, to reveal the existential, cognitive, moral and other features of the functional meanings of the perfect human being, especially in this critical time. As talking about the functional meaning of the perfect human being seems more than necessary so that to redefine the reality and nature of the human being and illuminate his path and save him from all forms of loss, existential alienation and deterioration that have afflicted his current reality.

Key words:
Human being – Perfect – Ibn Al-'Arabi – 'Abd al-Baqi Meftah.

مقدمة:

يعدّ موضوع "الإنسان الكامل" من المواضيع التي تناولتها الكثير من الرؤى والاتجاهات بالبحث والدراسة في العديد من الميادين المختلفة كالفلسفة والتصوف والأنتربولوجيا وغيرها من الميادين الأخرى. ويأتي الحديث عن "الكمال" في التصوف أو في التجربة الصوفية ليعبّر عن مسيرة عميقة ذات أبعاد متعددة؛ وذلك من منطلق أن "الكمال" في سياق هذه التجربة يفرض على الساعي إلى تحقيقه الانخراط في الطريق، طريق المريدين وطريق السالكين وطريق العارفين. هذه المسيرة يحدها أساسا "الجهاد" الذي هو طريق المجاهدات والمكابدات والمعاناة، لكي تتوّج حياتهم بالتعرف على خلاصة حقيقة أنفسهم. وهنا يأتي "الإنسان الكامل" الذي هو السرّ لكي يعطي كل المعنى المقصود للمسيرة في مناحيها الوجودية والمعرفية والأخلاقية للمتأهب المريد، وللسالك وللعارف على السواء؛ فالمريد إنما يريد الكمال، والسالك يسلك سبل الوصول إلى كماله، والعارف يقصد إلى معرفة ذاته الحقيقية الكاملة.

وقد تطرق الصوفية بصفة عامة والشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي (560-638ه) بصفة خاصة إلى موضوع "الإنسان الكامل"، من حيث أن هذا التناول يستمد أهميته وقيمته من أهمية وقيمة الإنسان ذاته في الكون. وفيما يتعلق بـ "الإنسان الكامل" عند ابن العربي، فإنا واجدون أنّ للروح الإنسانية عنده إمكان مطلق، وأنّ غاية الحياة تكمن في تحقيق ذلك الإمكان، وإذا كان الكمال هو مرتبة القِلّة فإن كل البشر يحملونه كإمكان. وندرك بصورة أكبر ما لهذه الأهمية المركزية للإنسان الكامل عند ابن العربي من خلال ما يمكن عدّه قاموسا من المصطلحات يفضي كل مصطلح فيه إلى نعت ما من النعوت لهذا الإنسان الكامل، ومن خلالها ندرك عمق وشساعة الحقل الدلالي لها عند الشيخ الأكبر. هذه الشساعة لهذا الحقل الدلالي تطرح فيما تطرح الحديث عن المعنى الوظيفي للإنسان الكامل في أبعاد عديدة ميتافيزيقية غيبية وإمكانية كونية أخلاقية واجتماعية وغيرها؛ ذلك أن الحديث عن معنى وظيفة الإنسان الكامل في أبعادها هذه وغيرها من الأبعاد الأخرى يعدّ أمرا طبيعيا يخبر عن وعي هذا الإنسان برتبته الكمالية، فعبرها يحقق القصد الأول من الخلق وهو معرفة الله تعالى وعبادته، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]. وفي التصوف تحديدا يتمتع الإنسان الكامل بالوعي الكامل بالله تعالى، ويتم تحقيق ذلك من خلال الاعتناء بأسماء الله تعالى تعلقا وتخلقا وتحققا، ومن خلال أنماط سلوكه التي تشمل الرحمة والعدالة والحكمة.

وتأتي هذه الورقة البحثية لمحاولة بيان هذه الأبعاد الوظيفية في رؤية ابن العربي، وتحديدا من خلال قراءة ومنظور الشيخ عبد الباقي مفتاح[1] لها عند ابن العربي. حيث يعدّ الشيخ عبد الباقي مفتاح من أكبر الدارسين والباحثين المعاصرين المتخصصين في ابن العربي، فقد نحا منحى جديدا في فهم الخطاب الأكبري وفك شفراته وملغزاته وأقفاله ومعانيه بعيدا عن الصورة النمطية المستهلكة التي كرّسها في حق هذا الخطاب الكثير من الدارسين المحدثين ولا يزالون، من العرب والمستشرقين. فكتابات الشيخ عبد الباقي مفتاح مفيدة للغاية للقرّاء المعاصرين. وذلك من منطلق توجيه القارئ للتعرف على أنّ ابن العربي لم يكن، كما يزعم الكثيرون، رائد فلسفة وحدة الوجود أو غيرها من النظريات الفكرية، وإنما كان وارثا محمديّا كاملا، جملتُه وتفصيله وأنفاسه القرآن العظيم والفرقان الكريم، خصّه الله تعالى بمرتبة خاتم الولاية المحمدية.

---

[1] - شيخ وعالم وباحث جزائري (مولود سنة 1952) ببلدة "أقمار" بمدينة "وادي سوف" الواقعة في صحراء الجهة الشرقية الجنوبية من القطر الجزائري، ألف ونشر عن الشيخ الأكبر أزيد من ثلاثين كتابا، بين الدراسة والتحقيق والشرح، فضلا عن دراساته الأخرى المتعددة والكثيرة في ميدان التصوف عموما. من أهم مؤلفاته: "سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي"، "الشرح الأتم لكتاب فصوص الحكم"، "حقائق الأسماء الحسنى وشرحها عند ابن العربي". "حقائق القرآن عند محيي الدين ابن العربي". "شروح على التفسير الإشاري للشيخ محمد محيي الدين ابن العربي"، وغيرها.

ولعلّ هذا ما حدا بالشيخ عبد الباقي مفتاح إلى إعادة قراءة ابن العربي وشرح نصوصه بعيداً عن المرجعية الفلسفية والدينية القديمة التي نسبه إليها الكثير من الباحثين المعاصرين ممن لم يذوقوا و يتذوقوا المشرب القرآني له؛ ليدشن بذلك مرحلة جديدة في القول حول ابن العربي تنطلق من اعتبار أن الفهم المستحضِر للروح القرآنية التي يصدر عن حضرتها كلام ابن العربي كما أكد عليه هو نفسه في الكثير من المناسبات في مكتوباته يضع الباحث، "الباحث عن الحقيقة"، أمام حقيقة لا يمكن تجاوزها ولا إهمالها على الإطلاق، وهي المرجعية القرآنية للشيخ الأكبر. فقد بادر الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى اعتبار أن نظام التأليف الأكبري في حد ذاته وأسرار التبويب في "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم" وغيرها من المؤلفات الأخرى له لا يمكن أن تفهم حق الفهم في محتواها وترتيب أجزائها وأبوابها وفصولها إلا بالعودة إلى القرآن الكريم. وقد أداه فحصه للنصوص الأكبرية إلى أن بنية هذه النصوص محددة بالقرآن الكريم نفسه، بحيث لا يبدو مذهب الشيخ الأكبر مجرد تفكير حول القرآن الكريم بل هو موصول به وصلاً عضوياً لا يمكن أن ينفصل عنه.

ومن هنا كان اختيارنا للعنوان مركزا في أساسه على محاولة استشكال مسألة المعاني الوظيفية للإنسان الكامل في الرؤية الأكبرية من خلال قراءة الشيخ عبد الباقي مفتاح لها. وهذا من أجل تحقيق جملة من الأهداف من أهمها إعادة وضع موضوع الإنسان الكامل في إطاره الصحيح، الذي هو المرجعية القرآنية والسنة النبوية وتراث كبار العارفين بالله، بعيدا عن جميع التأويلات المقحمة والمتعسفة في فهم هذه القضية. بالإضافة إلى الكشف عن المعاني الوظيفية للإنسان الكامل الوجودية والمعرفية والأخلاقية خاصة في هذا الراهن الذي نعيشه اليوم وتعيشه الإنسانية جمعاء، إذ يبدو الحديث عن هذا المعنى الوظيفي أكثر من ضرروي في سبيل إعادة تحديد حقيقة وماهية الإنسان وإنارة السبيل حول طريقه وانتشاله من أشكال الضياع والاغتراب الوجودي والتردي الذي آل إليه وضعه في الواقع المعاصر.

وبناء عليه اقتضت هذه الورقة البحثية أن تمرّ عبر أربعة محاور رئيسية تتمثل في الآتي:

المحور الأول: مصادر موضوع الإنسان الكامل

المحور الثاني: تصنيف الباحثين في موضوع الإنسان الكامل

المحور الثالث: مركزية الإنسان الكامل عند ابن العربي

المحور الرابع: وظائف الإنسان الكامل عند ابن العربي

1-مصادر موضوع الإنسان الكامل:

يتناول الشيخ عبد الباقي مفتاح مسألة جد هامة تتعلق بمصادر موضوع الإنسان الكامل، فيحددها في جملة من المصادر قديما وحديثا كالآتي:

المصدر الأهمّ الأوّل: هو الموسوعة العرفانية للشيخ الأكبر محي الدين بن العربي الكبرى: "الفتوحات المكية"، ففيها، كما يرى، تكرّرت كلمة "الإنسان الكامل" أكثر من تكرارها في كتب الشيخ الأكبر الأخرى، لأنّ دلالاتها الكثيرة المتشعبة عند الشيخ محي الدين لها أهميّة رئيسية في مجال الحقائق العالية. ففي "الفتوحات المكية" تكرّرت هذه الكلمة أكثر من مائة وثلاثين مرّة. وجاءت كلمات أخرى مرتبطة بها مباشرة، مثل كلمة "الإنسان الحيوان" تكرّرت أكثر من ثلاثين مرة، وكلمة "الإنسان الكبير" نحو ستة عشر مرّة، و"الإنسان الخليفة" سبع مرّات، و"الإنسان الصغير" ستة مرّات، و"الإنسان الجامع" مرتين، و"الإنسان الأوّل" مرة، وكذلك "الإنسان الأزلي" وهو عبارة عن عين الإنسان الثابتة في علم الله الأزلي. ومنها أيضا: "العبد الكامل" تكرّر ثمانية عشرة مرة، و"العبد الكلي"، و"العبد الأصلي"، و"العبد الجامع"، و"العبد المحض"، و"العبد المحقق"، و"العبد المصطفى"، و"العبد المقرّب"، و"العبد الإلهي، و"عبد الحضرة"، و"العبد الحقيقي"، و"العبد الخالص"، و"العبد الذاتي"[1].

ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح، من منطلق تخصصه في شرح النصوص الأكبرية بالكشف عن مفاتيحها القرآنية، إلى أن هذه النعوت للإنسان الكامل كلها مجملة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[الزخرف:81]. وفي العديد من أبواب "الفتوحات المكية" تفاصيل كثيرة حول مرتبة الإنسان الكامل ونعوته ووظائفه الوجودية والمعرفية. بل يمكن القول أنّ مجمل كتاب "الفتوحات المكية" منهاج كامل للتحقق بحقيقة الإنسان الكامل، أو على الأقلّ للتعرّف على مكانته الوجودية العظمى الفريدة. ولا يخفى أن هذه النعوت الكثيرة التي ساقها الشيخ الأكبر للإنسان الكامل تعبر في عمقها عن الوظيفة الوجودية والمعرفية والأخلاقية له[2].

ثانيا: كتاب الشيخ محي الدين ابن العربي "فصوص الحكم" وشروحه: بالأخص الفص الأول: "فص حكمة إلهية في كلمة آدمية"، وفي فصوص إدريس وشعيب وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى أن اقتران آدم بالحكمة الإلهية، كما هو عند ابن العربي، يشير أساسا إلى حقيقة مركزية تتعلق بالإنسان الكامل وهي مسألة أنّ المخلوق الوحيد المخصوص بحمل أمانة تجلي الاسم الجامع المفرد "الله" هو الإنسان الخليفة الذي علمه الله الأسماء كلها. وفي هذا المعنى يقول ابن العربي: "واعلم أنّ كلّ ذكر يُنتج خلاف المفهوم الأوّل منه فإنه يدلّ ما ينتجه على حال الذاكر، كما شرطناه في التفسير الكبير لنا، إلا الكامل من الرجال فإنه يعلم جميع ما ينتجه ذلك الذكر، لعدم تقييده وخروجه عن تلك الصفات والأسماء التي تحت ولاية الاسم "الله". فإنّ الكامل من الرجال بمنزلة الاسم "الله" من الأسماء، وإنْ كان له الإطلاق فلا ينطق به إلا مقيّدا بالحال أو اللفظ، لا بد من ذلك"[3]. وفي هذا السياق يشرح الشيخ عبد الباقي مفتاح مقصود الشيخ الأكبر من قوله: "خروجه عن تلك الصفات والأسماء التي تحت ولاية الاسم الله"، إلى أنه يشير إلى أنّ الكمال يقتضي استيعاب كلّ الحضرات مع الانعتاق عن الانحصار فيها بالتحقق بالتجلي الذاتي المحيط اللامتناهي، وهو ما يسمّى بـ"اللامقام" المخصوص بكمّل المحمديين[4].

---

[1] - عبد الباقي مفتاح، "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محي الدّين ابن العربي"، مقال مخطوط، ص1-2. أنظر أيضا: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ط1، بيروت، دار دندرة 1986، ص158.

[2] - عبد الباقي مفتاح، "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محي الدّين ابن العربي"، ص2.

[3] - ابن العربي، الفتوحات المكية، آخر الباب 554.

[4] - عبد الباقي مفتاح، "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محي الدّين ابن العربي"، ص2.

ثالثا: كتاب الشيخ الأكبر الموسوم بـ "الميزان في حقيقة الإنسان"، وعنوانه الآخر: "نسخة الحق". وقد قام الشيخ عبد الباقي مفتاح بتحقيقه مع شروح وتعليقات كثيرة عليه[1].

رابعا: العمل الذي قام به الشيخ محمود محمود الغراب رحمه الله وهو جمع العديد من أهمّ نصوص الشيخ الأكبر حول الإنسان الكامل واختصار بعضها في كتاب عنوانه: "الإنسان الكامل من كلام الشيخ الأكبر ابن العربي".

كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن من أحسن المراجع في هدا الموضوع أيضا: "المعجم الصوفي" للباحثة الأكبرية سعاد الحكيم، في كلمة "الإنسان الكامل" وفي مترادفاتها الأخرى المتعددة. حيث يذهب إلى القول بأنه توجد تلخيصات جيّدة مفيدة لنصوص الشيخ مع إحالات لمراجعها.

وقد جمع الشيخ عبد الباقي مفتاح أيضا أهمّ نصوص الشيخ حول الحقيقة المحمدية في مرتبتها الباطنة ومجلاها البشري الظاهر، وفي مظهرها الأعلى أي "الإنسان الكامل"، في كتابه "الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي".

خامسا: أشهر وأعمق مَن كَتب في هذا الموضوع بعد الشيخ الأكبر هو الشيخ عبد الكريم الجيلي (المتوفى باليمن سنة 826هـ)، خصوصا كتابه: "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل". وقد كتب عليه الشيخ عبد الباقي مفتاح شرحا مهما[2]. ومِن الكتب الأخرى للشيخ الجيلي في نفس الموضوع: "الكمالات الإلهيّة في الصفات المحمدية"، وكتاب: "الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفه قدر النبي صلى الله عليه وسلم".

سادسا: أمّا البحوث الأجنبية في العصر الحديث في هذا الموضوع، ففي رأي الشيخ عبد الباقي مفتاح أنّ أحسن ما كُتِبَ في هذا الموضوع بأسلوب متميّز في غاية الأصالة والعمق، كتابان للعلامة الكبير الصوفي الحكيم، الفرنسي المولد، والمصري المهجر والوفاة: الشيخ عبد الواحد يحيى (رنيه جينو: 1886-1951م.)؛ عنوان الأول- حسب ترجمة الشيخ عبد الباقي له-: "رموز الإنسان الكامل" (وعنوانه الثاني: "رموز تقاطع خط الإسراء الأفقي مع خط المعراج العمودي")؛ وترجمته الحرفية: "رمزية الصليب"، بالمفهوم التوحيدي لا بالمفهوم المسيحي). وعنوان الكتاب الثاني: "مراتب الوجود المتعددة"؛ وقد ترجم الشيخ عبد الباقي مفتاح هذين الكتابين من الفرنسية إلى العربية، ضمن ترجمته لكتب أخرى لنفس المؤلف. وفيهما بيان واضح لعالَمِيَّة مفهومِ حقيقة "الإنسان الكامل"، ووجوده عند جُلّ الأمم منذ انطلاقة وجود الإنسان إلى اليوم، وأنّ الإنسان الكامل هو الجامع لجميع المراتب الوجودية في أبعادها الأفقية وفي ترتيبها العمودي من أدناها إلى أعلاها. كما أن من أحسن البحوث الأجنبية في موضوعنا هذا، كما يرى، بحوث الباحث الأمريكي وليام تشيتيك[3].

سابعا: ويقول الشيخ عبد الباقي مفتاح في إطار الحديث عن مصادر موضوع الإنسان الكامل، أن هناك العديد من البحوث والأطروحات الجامعية حول نظرية الإنسان عند ابن العربي. ومن أقدمها: بحث عنوانه: "نظريات الإسلاميين في الكلمة" لأبي العلا عفيفي[4]. ومنها "كتاب الإنسان الكامل في الإسلام" لعبد الرحمن بدوي[5].

2-تصنيف الباحثين في موضوع الإنسان الكامل:

ومن هذا المنطلق يذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح في إطار دراسته وجمعه وشرحه لنصوص الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي إلى أن رؤى ومواقف الباحثين عموما متعددة ومختلفة من موضوع "الإنسان الكامل". وإذا كان بالإمكان تصنيفها إلى اتجاهات أو فئات محددة فإنها لا تخرج عنده عن خمسة أصناف وهي[6]:

---

[1] - ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ط1، إربد-الأردن، دار عالم الكتب الحديث 2021.

[2] - عبد الباقي مفتاح، الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر للشيخ عبد الكريم الجيلي، ط1، دمشق، دار نينوى 2019.

[3] - عبد الباقي مفتاح، "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص5.

[4] - نظريات الإسلاميين في الكلمة (Logos) بحث نشر بمجلة كلية آداب القاهرة سنة 1924.

[5] - عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام، ط2، الكويت، وكالة المطبوعات 1976.

[6] - عبد الباقي مفتاح، الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016، ص3-4.

أ-الصنف الأول: لا يؤمنون أصلا بمفهوم "الإنسان الكامل"، وليس لديهم أي مرجعية دينية، ويرون أن هذا المفهوم ليس سوى وهم من بين الأوهام التي تخيلها المتدينون عبر التاريخ، فهو فكرة بشرية دعت إليها الحاجة وتلونت بألوان عقائد مختلف المجتمعات عبر تطور مراحل البشرية من الحياة البدائية إلى الحضارة المعاصرة.

ب-الصنف الثاني: هم أولئك الذين يصفهم بالمتدينين الذين حصروا أنفسهم في حرفية النصوص الدينية دون أي اعتبار لأي عمق ميتافيزيقي حقيقي، وعملوا على إقصاء جميع الفهوم التي تخالف فهمهم الظاهري القشري لهاته النصوص، ومن ثمة أنكروا التصوف كله، خاصة ما تعلق منه بالعرفان، ومحور هذا العرفان ألا وهو الإنسان الكامل[1].

ج-الصنف الثالث: وهو الذي يرى أنه جمع بين أمرين اثنين: من جهة، يعترف بالدين كوحي إلهي، وبالتصوف عموما، خاصة طرازه العرفاني الذي يشكل عمقه المتجذر الضارب في التاريخ البشري. ومن جهة أخرى متأثر بمناهج البحث الحديثة التي تعتمد على نظرية التطور في كل شيء، والتأثر والتأثير واقتباس المتأخر عن السابق. وهو من هذه الجهة يصطف إلى جانب الصنف الأول. وهذا ما أفضي بهذا الصنف الثالث إلى تصور أن مفهوم الإنسان الكامل هو مفهوم تطور عبر الزمن وعبر المعتقدات المختلفة من جيل إلى جيل. وقد جعل من الرموز والإشارات والكلام والمصطلحات وغيرها مما وجده مستندا ودليلا على مذهبه في تطور مفهوم الإنسان الكامل واقتباس التراثيات الروحية المتأخرة من التراثيات الروحية السابقة، فتعسف بذلك تعسفا كبيرا في تفسير هذا المفهوم المركزي في الوجود الإنساني[2].

د-الصنف الرابع: يرى بأن له فهم جيّد في موضوع الإنسان الكامل، ولكن جودة الفهم هذه تختلف بين باحث وآخر، حسب درجة التأثر بمناهج الأصناف الثلاثة السابقة. وكمثال على ما يراه جيدا في هذا الإطار يذكر بحث الأستاذ سعد الدين كليب الذي عنوانه " الجلال والجمال في الإنسان الكامل"[3].

هـ-الصنف الخامس: وهم كبار العارفين من أهل الله تعالى وأوليائه، حيث أن حقيقة الإنسان الكامل عندهم ليست فكرة دنيوية أو بشرية خضعت لصروف وضروب من التطور، "ولا عقيدة ثانوية هامشية من عقائد الدين، وإنما هي ككل حقائق العرفان السامي، حقيقة وجودية فوق الزمان، ومساقطها عبر تاريخ البشر في الأرض تتمثل في سلسلة الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم والخلفاء الربانيين والأقطاب؛ وعلى مدارها يجري تاريخ الإنسانية، بل سيرورة الوجود بأكمله، مرتبطة بها، من الأزل إلى الأبد"[4].

وهكذا ينتهي الشيخ عبد الباقي مفتاح، من خلال هذا التصنيف الذي أجراه للباحثين في مفهوم الإنسان الكامل، إلى نتيجة حاسمة مفادها: أنّ أغلب الاتجاهات فيما يتعلق بدراسة نظرية الإنسان الكامل سواء ما تعلق منها بعلماء الدين من أهل الرسوم المنحصرون في علم الظاهر أو الباحثون المحدثون من أهل الفكر والفلسفة لا يريدون الفهم والإقرار بعلوم المكاشفات الغيبية. وأنّ الكثير من الباحثين المحدثين يدرسون نصوص الشيخ الأكبر من منظور فلسفي بعيد عن عرفان أهل التحقيق. فالفارق بعيد جدا بين من يري الشيخ فيلسوفا أفرز فكره نظريات فلسفية، وبين من يراه أحد أكبر المحققين من أولياء الرحمن، بل ربما أكبرهم على الإطلاق، الذي كتب تراثه العرفاني الشاسع بإلهام ربّانيّ وتحقق ذوقي روحاني وكشف إلهي لا بتخمينات فكرية[5].

---

[1] - أنظر مثلا: لطف الله بن عبد العظيم خوجه، الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، ط1، الرياض، دار الفضيلة 1429هـ-2009م.

[2] - أنظر: آراء المستشرقيْن: الألماني "هانز هينرش شيدر" والفرنسي " لوي ماسنيون" في: عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام، ص11 وما بعدها، وص103 وما بعدها. ويبدو من خلال تصدير عبد الرحمن بدوي لكتابه أنه يذهب هو أيضا نفس مذهبهما. هذا إلى جانب ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، مادّة "الإنسان الكامل". ترجمة: عباس محمود وآخرون، ج3، ص48 وما بعدها.

[3] - أنظر: الفصل الخامس، سعد الدين كليب، البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، دمشق، وزارة الثقافة 1997، ص281 وما بعدها.

[4] - عبد الباقي مفتاح، الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ص4.

[5] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص5.

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أنه ينبغي على الباحثين المنصفين أن يفهموا أن مفاهيم العارفين عن الحقائق الوجودية، ليست نتيجة أو ثمرة للنظر الفكري ولا تأثير أو تأثر للمتأخر بالسابق ولا اقتباسات من السابقين، وأن حقيقة "الإنسان الكامل" عند كبار العارفين من أولياء الله تعالى ليست فكرة بشرية خضعت للتطوّر، ولا عقيدة ثانويّة أو هامشيّة من عقائد الدين، وإنما هي - ككلِّ حقائق العرفان السامي- حقيقة وجودية "فوق الزمان"، ومساقطها عبر تاريخ البشر في الأرض تتمثل في سلسلة الأنبياء والرّسل والخلفاء الرّبانيين والأقطاب وكمّل الحكماء الإلهيين؛ وعلى مدارها يجري تاريخ الإنسانية، بل سيرورة الوجود بكامله، مرتبطة بها من الأزل إلى الأبد، وإنما هي نتيجة "سلوك شرعي، وتحقق عرفاني روحاني، وفتح رباني في الفهم في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، الذي يخص به الحق - تعالى - من شاء من أوليائه الذين وفقهم لحقيقة التقوى، ومكّنهم في معارج الإحسان، وعلّمهم من لدنه علما"[1].

3-مركزية الإنسان الكامل عند ابن العربي:

1.3-حضور الإنسان الكامل في التراث الإسلامي:

يذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى القول أنّ بعض الحقائق المتعلقة بالإنسان الكامل التي نجدها مجملة في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة، ظهرت بذورها في البداية عند أئمة البيت النبوي عليهم السلام وعند أئمة الصوفية الأوائل، ثم توسّع التعبير عنها في القرنين الثالث والرابع، رغم عدم شيوع مصطلح "الإنسان الكامل" من حيث اللفظ، وإن كانت معانيه ودلالاته موجودة عند العارفين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. ومن أهم الأمثلة التي يوردها الشيخ عبد الباقي مفتاح على ذلك ما نجده مثلا عند الإمام الكبير الحكيم الترمذي محمد بن علي (ت: نحو 320هـ) في كتابه "ختم الأولياء"[2]. وبعد الإمام الترمذي ازداد التوسع في بيان خصوصيات "الإنسان المحمدي" الكامل عند بعض أئمة الصوفية، مع أنّ هذا المصطلح لم يكن شائعا، لاسيما في صلواتهم على النبي صلى الله عليه وسلم، إلى أن جاء الشيخ الأكبر ابن العربي، ففصّل هذا الموضوع من جُلّ جوانبه بكيفيات غير مسبوقة، وكلّ الذين جاؤوا بعده لم يضيفوا على ما فصّله أمورا جديدة ذات أهمية بارزة، رغم الأصالة والعمق الكبير في العديد من كتب ونصوص وصلوات وأشعار بعض الأكابر، مثل الشيخ عبد الكريم الجيلي وغيره من المتأخرين كالشيخ أحمد التجاني (ت:1230 ه) والشيخ أحمد بن إدريس المغربي (ت: 1253ه)، والشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني المغربي (ت: 1327ه) وغيرهم كثير. ثم بعد الشيخ الأكبر تغلغلت هذه المفاهيم الأكبرية وانتشرت في كل التراث الصوفي، فلا يخلو من تعاليمه وأنفاسه، على ما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح، ما لا يحصى من الأشعار والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم التي ألفها الصوفية والمحبّون في كلّ أصقاع العالم[3].

2.3-المصطلحات ذات العلاقة بمصطلح الإنسان الكامل عند ابن العربي:

إن موضوع الإنسان الكامل يعدّ قطب الرحى في رؤية الشيخ محيي الدين ابن العربي؛ ذلك أن الإنسان الكامل يمثل عنده المركز الذي تدور من حوله المخلوقات والعالم كله؛ فالإنسان الكامل عنده هو روح العالم، وما نسبة العالم إليه إلا كنسبة الروح إلى الجسد، وهو البرزخ الجامع لحقائق العالم العلوي والسفلي، فهو بذلك المرآة الحقيقية لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، والصفات العليا. فالكون عند ابن العربي لا يمثل حضرة الألوهة تمثيلا كاملا، ولذلك كان لا بد من وجود كون جامع يحصر الأمر كله، ويكون مظهرا للأسماء الإلهية الحسنى كلها، يقول ابن العربي في هذا المعنى: "لما شاء الحق سبحانه من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت أن يرى عينه، في كون جامع يحصر الأمر كله،

---

[1] - عبد الباقي مفتاح، الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ص4. و "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص6.

[2] - الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، تحقيق: الشيخ عبد الوارث محمد علي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية 1999م.

[3] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص13.

لكونه متصفا بالوجود (...) أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه، فكان كمرآة غير مجلوة (...) فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة وروح تلك الصورة"[1].

ولهذه الأهمية المركزية للإنسان الكامل عند ابن العربي نجد ما يمكن عدّه قاموسا من المصطلحات التي لها علاقة بمصطلح الإنسان الكامل، وهي كلها تصب في الدلالة على الوظيفة الوجودية المعرفية والأخلاقية لهذا الإنسان. فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من كلمات مرتبطة بالإنسان الكامل، يبيّن الشيخ عبد الباقي مفتاح وجود الكثير من المصطلحات الأخرى التي لها علاقات مباشرة به، وهي كالمترادفات لمفهوم الإنسان الكامل عند الشيخ الأكبر. يذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الحقيقة الكلية - التعيّن الأول - العنصر الأعظم - الحقيقة المحمدية - نور محمد - فلك الحياة - الحق المخلوق به - أصل العالم - العدل - المادة الأولى - جنس الأجناس- مركز الدائرة - الفلك المحيط - كل شيء - الكتاب - المفيض - العقل الأول - القلم الأعلى - العُقاب - الدرة البيضاء – عرش الله - العرش المجيد - الامام المبين - الروح الكلي - روح العالم - الخليفة - نائب عن الله - ظل الله - النسخة العظمى أو الجامعة أو الكاملة - الكلمة الجامعة - البيت الأعلى - المختصر الشريف - عين الجمع والوجود - الممد الأول - المعلم الأول - البرنامج الجامع - مرآة الحق والحقيقة – المثل الأعلى - برزخ البرازخ- قطب الأقطاب ..إلخ[2]. وقد ذكرت الأستاذة الباحثة الأكبرية سعاد الحكيم، أنها أحصت ما يزيد على أربعين مرادفا لهذا المصطلح في كتب ابن عربي[3].

3.3-سبب تعدد وكثرة المترادفات لمصطلح الإنسان الكامل عند ابن العربي:

ويعزو الشيخ عبد الباقي مفتاح كثرة هذه المترادفات لمصطلح الإنسان الكامل إلى "أنّ كلّ واحدة منها تدلّ على وجه أو صفة أو نسبة من حقائقها المنبثقة عن ما هو مصطلح عليه في العموم باسم "الحقيقة المحمدية" المتجلية في كلّ شيء، وبالأخص في الحقيقة الإنسانية عندما تتفتّق كلّ أبعادها الوجودية الحقية والخَلْقية في الكُمَّل من بني آدم في كلّ عصر. وكمال الحقيقة الإنسانية يتمثل أساسا في التحقق بكمال العلم بالله وبخلق الله. وهذا الكمال موجود بالقوة كامن في كلّ إنسان، لكنه لا يظهر بالفعل ويتم على وجهه الأعلى الأشمل إلا في أولئك الكُمَّل المتوحّدة حقائقهم في الحقيقة المحمدية الكلية الجامعة"[4]. وفي هذا الإطار يلاحظ أحد الباحثين المتخصصين في ابن العربي، ميشال شودكيفيتش (علي عبد الله)، أنه كما يمكن أن نرى الإنسان الكامل هو الحقيقة المحمدية، كذلك يمكن أن نتناول الإنسان الكامل والحقيقة المحمدية باعتبارهما منظورين مختلفين لحقيقة واحدة؛ فالإنسان الكامل بما هو قصد وغاية، أي باعتباره خليفة الله تعالى. وأما الحقيقة المحمدية فتتجلى عندما ينظر إلى الإنسان في صورته الأصلية[5].

أمّا الإنسان الذي لم تنبعث نواة الكمال في فطرته من كمونها وغلّفتها الجهالات والغفلات والرّكون إلى السفليات والظلمات فهو الذي يطلق الشيخ عليه اسم: "الإنسان الحيوان". وبين مرتبته ومرتبة الإنسان الكامل تتدرّج المراتب الرّوحية لجميع بني آدم. فأتمهم كمالا أتمّهم تحققا بحقائق الحقيقة المحمدية، وهم الخلفاء الكمّل الذين مثّلهم الشيخ بقوله: "فالكامل من الخلفاء كالحبوب من الحبّة . فيعطي كل حبّة ما أعطته الحبّة الأصلية لاختصاصها بالصورة على الكمال. وما عدا الخلفاء من العالم فلهم من الحق ما للأوراق والأغصان والأزهار والأصول من النواة"[6].

---

[1] - ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج1، ص18-19. أنظر أيضا: عبد الباقي مفتاح، الكشف الأتم لكتاب مفاتيح فصوص الحكم لابن العربي، ط1، دمشق، دار نينوى 2021م.

[2] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص6.

[3] - سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص158 وما بعدها.

[4] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص8. أنظر: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص158-159.

[5] - ميشال شودكيفيتش (علي عبد الله)، الولاية والنبوة عند ابن عربي، ترجمة: أحمد الطيب، ط1، مراكش، دار القبة الزرقاء 1999، ص75.

[6] - ابن عربي، الفتوحات المكية، الوصل الثاني من الباب 369، وهو في معرفة منزل مفاتيح خزائن الجود. أنظر: عبد الباقي مفتاح، الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ص285.

وقد عبّر عن هذا المعنى أيضا الشيخ عبد الكريم الجيلي في الباب الذي عنوانه: "الباب الموفي ستين في الإنسان الكامل وأنه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مقابل للحقّ والخلق" من كتابه "الإنسان الكامل" فقال: "إنّ أفراد هذا النوع الإنساني كل واحد منهم نسخة للآخر بكماله، لا يُفقد في أحد منهم مما في الآخر إلا بحسب العارض، كَمَنْ تُقطَعُ يداه ورجلاه، أو يُخلَقُ أعمى لِمَا عَرَضَ له في بطن أمه، ومتى لم يحصل العارضُ فهم كَمَراءٍ متقابلات يوجد في كلّ واحدة منهما ما يوجد في الأخرى، ولكن منهم من تكون الأشياء فيه بالقوة، ومنهم من تكون فيه بالفعل، وهم الكمّل من الأنبياء والأولياء"[1].

4-وظائف الإنسان الكامل عند ابن العربي:

وما سوق الشيخ عبد الباقي مفتاح هذه المترادفات لمصطلح الإنسان الكامل، إلا ليتلمّح الدارس من خلالها عمق وشساعة الحقل الدلالي لها عند الشيخ الأكبر. هذه الشساعة لهذا الحقل الدلالي تطرح فيما تطرح الحديث عن وظائف الإنسان الكامل. ذلك أن هذا الحديث "يعتبر النتيجة الطبيعية لوعي هذا الإنسان برتبته الكمالية والمعرفية والأخلاقية؛ فعبرها يحقق الإنسان الكامل القصد الأول من الخلق وهو معرفة الله تعالى وعبادته، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]"[2].

1.4-الوظيفة الوجودية للإنسان الكامل:

تتمثل الوظيفة الوجودية للإنسان الكامل عند ابن العربي في أبعاد عديدة ميتافيزيقية غيبية وإمكانية كونية وغيرها من الأبعاد الأخرى، فالإنسان الكامل في إطار هذه الوظيفة يتمظهر في مظهر علّة وجود العالم، وسبب ظهوره، من حيث أن العلة تتساوق مع معلولها وجودا وعدما، وإلى هذه الإشارة في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ ومِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الطلاق:12] ، فالغاية هنا واضحة في الآية دلّت عليها لام التعليل: "لتعلموا" إذا لم يوجد الإنسان الكامل في العالم[3]، وفي مساق هذه الآية الكريمة يقول ابن العربي: "فما لك لا تشكر الله أيها الإنسان على ما خوّلك؟ ومالك لا تحمده وقد نزّلك أمرا بين سمائه وأرضه وفضلك"[4]. ولذلك جاء في الأحاديث الصحيحة: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس"[5]. وفي هذا السياق يقول ابن العربي: "وعلى قدم شيث يكون آخر مولود يولد من هذا النوع الإنساني وهو حامل أسراره، وليس بعده ولد في هذا النوع فهو خاتم الأولاد (...) ويسري العقم في الرجال والنساء، فيكثر النكاح من غير ولادة، ويدعوهم إلى الله فلا يجاب، فإذا قبضه الله تعالى وقبض مؤمني زمانه بقي من بقي مثل البهائم، لا يحلون حلالا، ولا يحرمون حراما، يتصرفون بحكم الطبيعة شهوة مجردة عن العقل والشرع، فعليهم تقوم الساعة"[6].

ويذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى القول إنّ من أهمّ خصوصيات الإنسان المحمدي الكامل عند الشيخ ابن العربي كونه علّة وجود العالم، وهذا معنى اسمه "الحق المخلوق به" -الذي سقناها سابقا في مترادفات مصطلح الإنسان الكامل- أي المخلوق بسببه أو من أجله العالم، لقوله تعالى:﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]، وقال للإنسان الكامل الأصلي الأوّل:﴿ قُلْ إنْ كانَ لِلرَّحْمَنِ ولَدٌ فَأنا أوَّلُ العابِدِينَ﴾ [الزخرف:81]. وهذه الأولية في العبوديّة هي عين الأولية في القرب. ومن هنا كان الإنسان المحمدي الكامل المخلوق في أحسن تقويم برزخا فاصلا وجامعا بين الحق والعالم لجمعه بين الصورتين

---

[1] - عبد الباقي مفتاح، الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر للشيخ عبد الكريم الجيلي، ص454.

[2] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، أطروحة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003-2004، ص552.

[3] - المرجع نفسه، ص591.

[4] - ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق وتعليقات: عبد الباقي مفتاح، ص29.

[5] - مسلم، الصحيح، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، الرياض، الرئاسة العامة لإدارة البحوث، 1400هـ، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم2949، ج4، ص2268.

[6] - ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج1، ص67.

الحقية والخلقية: فلا يبقى له في الحضرة الإلهية اسم إلا وهو حامل له، فيظهر بالأسماء الإلهية فيكون حقا، ويظهر بحقيقة الإمكان فيكون خلقا. أي يكون حقا من حيث قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:10]، ويكون خلقا من حيث قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[الكهف:110][1].

وإلى جانب ما تقدم نرى الشيخ الأكبر يسبغ مزيدا من السمات الميتافيزيقية والوظائف الوجودية على الإنسان الكامل، وذلك من حيث احتواؤه للحقائق الحقية والحقائق الخلقية، وفي هذا المعنى يقول ابن العربي: "فما صحت الخلافة للإنسان الكامل، فأنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وأنشأ صورته الباطنة على صورته الباطنة –يقصد الأسماء الحسنى- لذلك قيل: "كنت سمعه وبصره"[2] ما قال كنت عينه وأذنه ففرق بين الصورتين"[3]. ويقول في موضع آخر الإنسان الكامل هو "العين المقصودة لله من العالم"[4]، فقد وجد على الصورة. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته"[5] يقول ابن العربي: "ما أوجد الله على الصورة أحدا إلا الإنسان الكامل"[6].

وفي الوقت ذاته، المقصود بالإنسان الكامل عند ابن العربي "هو محمد صلى الله عليه وسلم ومرتبة الكمّل من الأناس النازلين عن درجة الكمال الذي هو الغاية من العالم"[7] كالأنبياء والأولياء الكاملين الذين تحققت بوجودهم معاني الخلافة، ومعاني الوجود، فهم سرّ الوجود وعلته.

إن الإنسان الكامل هو الحافظ للعالم أو العَمَد بتعبير ابن العربي، وهذا ما بيّنه بقوله: "فالعَمَد هو المعنى الماسك، فإن لم ترد أن يكون هو الإنسان فاجعله قدرة المالك، فيتبيّن أنه لا بد من ماسك يمسكها، وهي مملكة فلا بد من مالك يملكها، ومن مسكت من أجله فهو ماسكها، ومن وجدت له بسببه فهو مالكها"[8]. وفي هذا الإطار يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أن ابن العربي في الكثير من نصوصه يؤكد على حقيقة جوهرية أن الإنسان الموحِّد الذاكر هو العَمَد الواصل بين السماء والأرض، والواسطة بين المراتب العلوية والمراتب السفلية. حيث يقول ابن العربي في هذا الإطار أن الله تعالى: "أمسك صورة السماء على السماء لأجل الإنسان الموّحد، الذي لا يمكن أن ينفي، فَذِكْرُه: "الله الله"، لأنه ليس في خاطره إلا الله؛ فما عنده أمر آخر يدّعى عنده ألوهية فينفيه بـ"لا إله إلا الله". فليس إلا الله الواحد الأحد. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله"؛ وهو الذكر الأكبر الذي قال فيه: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ واللَّهُ﴾[العنكبوت:45]. فما قال الرسول صلى الله عليه وسلم من يقول: "لا إله إلا الله". فهذا الاسم هو هِجّير هذا الإمام الذي يقبض آخرا (أي آخر قطب خليفة)، وتقوم الساعة، فتنشق السماء. فإنّ هذا وأمثاله كان العَمَد، لأن الله ما أمسكها إلا من أجله أن تقع على الأرض، ولذلك قال فيها إنها واهية، أي واقعة ساقطة"[9].

---

[1] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محي الدّين ابن العربي"، ص12.

[2] - كما جاء في الحديث القدسي: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه". رواه البخاري، الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر (د.ت)، كتاب الرقاق، باب التواضع، ج7، ص190.

[3] - ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج1، ص55.

[4] - ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحي، السفر الثاني، ص252.

[5] - البخاري، الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر(د.ت)، كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم على صورته، حديث 3326، ج2، 405. مسلم، الصحيح، كتاب الجنة، باب: يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير، ج8، ص149.

[6] - ابن عربي، الفتوحات المكية، ج5، ص393.

[7] - المرجع نفسه، ص277.

[8] - ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحي، السفر الأول، ج1، ص50.

[9]- ابن العربي، الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق وتعليقات: عبد الباقي مفتاح، ص46. ابن عربي، الفتوحات المكية، الفصل الرابع من الباب 371.

وهنا يؤكد ابن العربي على ما في ذكر "الله الله" من أعظم فائدة، من حيث أنه لم يذكر صورة ذكر آخر مع كثرة الأذكار بالأسماء الإلهية، ولذلك اتخذه أهل الله ذكرا وحده، فأنتج لهم في قلوبهم أمرا عظيما لم ينتجه غيره من الأذكار، فأفضى ذلك الأمر إلى حفظ العالم. وبذلك يبرز ابن العربي حقيقة دور ذكر الله تعالى للإنسان الموّحِد الكامل في توازن الوجود والعالم، يقول في هذا الإطار: "أن الله تعالى ما وصف بالكثرة شيئا إلا الذكر. وما أمر بالكثرة من شيء إلا الذكر. قال تعالى:﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب:35]. وقال:﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:41]. كما أنه ما أتى الذكر قط إلا باسم الله خاصة مُعَرَّى عن التقييد فقال:﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ﴾، وما قال بكذا. وقال:﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: 45] ولم يقل بكذا. وقال:﴿ وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[الحج:36] ولم يقل بكذا (...) وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله" فما قيّده بأمر زائد على هذا اللفظ. لأنه ذكر الخاصّة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا، وكل دار يكونون فيها، فإذا لم يبق في الدنيا منهم أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها من أجله، فتزول وتخرب. وكم من قائل: "الله" باقٍ في ذلك الوقت، ولكن ما هو ذاكر بالاستحضار الذي ذكرناه؛ فلهذا لم يُعتبر اللفظ دون الاستحضار"[1]. فالذكر الحافظ هنا المراد به ذكر باستحضار، ولا يعتبر اللفظ دون استحضار. "فلولا أن قول الإنسان: "الله الله" له حفظ العالم الذي يكون فيه هذا الذكر، لم يقرن بزواله زوال الكون الذي زال منه وهو الدنيا"[2].

2.4-الوظيفة المعرفية للإنسان الكامل:

ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح أنه بمقتضى هذه البرزخية الوجودية الأولى الجامعة، فللإنسان الكامل أيضا البرزخية العلمية المعرفية، حيث يتلقى من الحق تعالى الإمداد، ويمدّ كلّ مخلوق وفق ما لديه من الاستعداد. وقد صرّح الشيخ الأكبر بهذا حيث يقول ما خلاصته: "وأمّا القطب الواحد فهو روح محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الممدّ لجميع الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين والأقطاب من حين النشء الإنساني إلى يوم القيامة. قيل له صلى الله عليه وسلم: متى كنت نبيّا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "وآدم بين الماء والطين"[3] (...) وقد أخذنا نحن عنه علوما جمّة بمآخذ مختلفة. ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم، أكمل مظهره في قطب الزمان وفي الأفراد وفي ختم الولاية المحمدي (يعني الشيخ به نفسه) وختم الولاية العامة الذي هو عيسى عليه السلام، وهو المعبّر عنه بمسكنه"[4]. ويرى الشيخ عبد الباقي مفتاح انطلاقا من رؤية ابن العربي في هذا المعنى أنّ الكمّل وإنْ تعدّدوا فكلهم واحد، وإمدادهم المشترك من العنصر الأعظم في الحقيقة المحمدية فيقول: "فجعل الإنسان الكامل خليفة عن "الإنسان الكلّ الكبير"، الذي هو "ظل الله" في خلقه من خلقه. فعن ذلك هو خليفة. ولذلك هم خلفاء عن مستخلِف واحد"[5].

وفي هذا المعنى يقول صدر الدّين القونوي في كتابه "الفكوك على الفصوص": "إنّ الإنسان الكامل الحقيقي هو البرزخ بين الوجوب والإمكان، والمرآة الجامعة بين صفات القدم وأحكامه، وبين صفات الحدَثان، وهو الواسطة بين الحق والخلق، وبه وبمرتبته يصل فيض الحق والمدد، الذي سبب بقاء ما سوى الحق، إلى العالم كله علوا وسفلا. ولولاه من حيث برزخيته التي لا تغاير الطرفين لم يقبل شيء من العالم المدد الإلهي الوحداني لعدم المناسبة والارتباط"[6].

---

[1]- المرجع نفسه، ص47. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب 142.

[2] - المرجع نفسه، ص47. ابن عربي، الفتوحات المكية، الباب 361.

[3] - قال السخاوي: لم نقف عليه، وقال الزركشي: لا أصل له بهذا اللفظ، وإنما الحديث الصحيح: "كنت نبيا وآدم بين الجسد والروح"، ينظر: العجلوني، كشف الخفاء، ج2، ص129.

[4] - ابن اعربي، الفتوحات المكية، آخر الباب الرابع عشر.

[5] - المرجع نفسه، الباب 361.

[6] - نقلا عن: عبد الباقي مفتاح، "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص13.

إن التحقق بمعرفة الحق وشهوده وأخذ العلم عنه لا يتأتى للإنسان إلا إذا بلغ مرتبة "تأنيسه" التي هي حقيقته وعينه الثابتة، وهي مرتبة التولية، وهي المرتبة التي يخرج فيها العبد عن أوصافه التي ليست إلا سجنا "الفناء" ليتحقق بـ"البقاء" الذي هو مقام العارف. وهذا المقام هو مقام "الروح المحمدي". والواصل إليه في مقام تمام الشهود، له المعرفة الجامعة بحيثيات جميع الأسماء والصفات، وإلى هذا الإشارة في الحديث الصحيح " رب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره، وإن أويسا منهم"[1]. وقوله في الحديث القدسي: "كنت سمعه وبصره ويده ورجله"[2]. وهذ المقام المذكور في الحديثين هو المقام الخاص بالوارث، أو المحقق، أو الإنسان الكامل أو الولي[3].

هذا، وإذا كانت الإنسانية في بعض معانيها التي تعطيها لنا اللغة تقال على ما هو محمود وحسن من الصفات، وإذا كانت الإنسانية تفهم في بعض الأحيان في المجال الفلسفي التقليدي خاصة على أنها مقول كلي مجرد يدل على جملة من الخصائص المشتركة بين جميع الناس؛ فإن ابن العربي يتجاوز هذه المعاني ليرى أن الإنسانية رتبة كمال معرفية وليست فقط تحديدا مرتبة وجودية. فإن "الإنسان الحيوان" و"الإنسان الكامل" وإن كانا متشابهين من حيث تماميتهما الوجودية لجمعهما الحقائق كافة من إلهية وكونية، لكنهما مختلفان من حيث الكمال الذي يدرك بالتحقق المعرفي المنتج للفعل. يقول ابن العربي: "فهذا المنزل يعطيك شرف الإنسان على جميع من في السماء والأرض، وإنه العين المقصودة للحق من الموجودات؛ لأنه ما كمل إلا بصورة الحق، كما أن المرآة وإن كانت تامة الخلق، فلا تكمل إلا بتجلي صورة الناظر، فخلق سبحانه الإنسان من حيث تماميته، لا من حيث كماليته، فهذا النوع المشارك له في الاسم إذا لم يكمل هو من جملة المسخرين"[4].

وبذلك كان معنى "الإنسانية" عند ابن العربي يعني الخلافة عن الله تعالى، وهنا تظهر قيمة النظر إلى مصطلح الإنسانية كـ: "صفة فعل" أو وعي معرفي وتحقق فعلي عملي سلوكي، لأنها ستكون حينئذٍ "أنس بالرتبة الكمالية"، أو ارتقاء إلى الدرجة التي توصل الإنسان للخلافة في الأرض. فالتحقق المعرفي والعملي بصورة الحق هو الذي يميّز بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل، وذلك لأن كليهما يتشابهان من حيث تماميتهما الوجودية ولكنهما يختلفان من حيث كماليتهما المعرفية العملية. إذ أن الإنسان الحيوان والإنسان الكامل كلاهما جامع للحقائق كافة من إلهية وكونية، ولكن يختلفان من حيث الإدراك والتحقق كما أسلفنا[5].

والإنسانية عند ابن العربي تكتسب "سمات البرزخ"، لأن البرزخ عنده بمثابة مرآة للطرفين، فمن أبصره أبصر الطرفين. فالإنسانية بهذا الاعتبار أشبه بـ"البرزخ" الذي هو حقيقة الإنسان التي جمعت بذاتها الصورتين "الحقية" و"الخَلقية"، فكانت نسختين ذات نسبتين: نسبة تدخل بها الحضرة الإلهية، ونسبة تدخل بها الحضرة الكونية فهي برزخ بين العالم والحق، وهي مرتبة الإنسان الكامل[6]. ويمكن الإشارة في هذا الإطار إلى أن ابن العربي يؤكد على أن هذه المرتبة ليست حكرا على الرجال دون النساء، وفي هذا المعنى يقول: "إن المنازلات بين حقائق الأسماء الإلهية وبين الحقائق الإنسانية في الإنسان الكامل امرأة كان أو رجلا تتعدد بتعدد التوجهات والأسماء، وما عدا هذا الصنف الإنساني فليس له هذا التعميم لعدم كمال الصورة فيه"[7]. ويقول أيضا: "القرب من الحق بحسب تقديس الذات وتزكيتها، ولا يختص بذلك ذكر دون أنثى، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد

---

[1] - مسلم، الصحيح، كتاب: فضل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني، ج7، ص188 وما بعدها.

[2] - سبق تخريجه.

[3] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محي الدين بن عربي، ص553.

[4]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص151.

[5]- عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محي الدين بن عربي، ص195.

[6]- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ص194.

[7]- ابن عربي، كتاب التراجم، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق، دار الحكمة 2000، ص37.

كمل من النساء مريم وآسيا"[1]. ويقول في موضع آخر: "اعلم أيدك الله، أن الإنسانية لمّا كانت حقيقة جامعة للرجل والمرأة لم يكن للرجال على النساء درجة من حيث الإنسانية"[2].

ويجب الإشارة هنا إلى أن أهل الولاية على أقسام كثيرة، فمن الأولياء تولاهم الله تعالى بالنبوة، وهم رجال اصطنعهم الله لنفسه، واختارهم لخدمته، واختصهم من سائر العباد لحضرته، ومن هؤلاء صفوة أخرى هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ويبدو أن الحديث عن الوظيفة المعرفية للإنسان الكامل تظهر في النبوة والرسالة أولا، أي عند الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم باعتبارهم كُمّل الإنسانية ثم في الولاية والأولياء تبعا. وتأخذ هذه الوظيفة بعض معانيها المعرفية في القول بقصور العقل البشري وعدم كفايته وافتقاره إلى النبوة؛ ذلك أن العقل بمفرده لا يستطيع الوصول إلى المعارف التي تكون به سعادته وكماله الممكن، ومن أهم هذه محاصيل هذه المعارف معرفة خالقه، وما له من أسماء وصفات وأفعال تناسبه وتجب له وتجوز أو تستحيل في حقه، وما وصف به نفسه من شرعه مما يحيله العقل ويأتي به الشرع، فالناس، كما يرى الشيخ الأكبر، يحشرون يوم القيامة على قدر معرفتهم بالله الحاصلة في نفوسهم لا على قدر معرفتهم بطريق المعرفة والعلم. ثم إذا أمكن للعقل أن يدرك حقائق بعض الأمور، فإنه يعجز عن أخرى. ولعلّ هذا ما بينه ابن العربي لابن رشد عندما سأله عن محصوله المعرفي فقال: "نعم" و "لا"، وبين "نعم" و "لا" تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها. فالعقل البشري ليس باستطاعته وحده أن يبلغ بصاحبه إلى السعادة في هذه الحياة. وبعبارة أخرى فإن حيّز مساحة الإدراك العقلي المتاح لنا هو حيّز صغير وضيّق إذا ما قورن بحيّز المساحة الغائب عن ما ندركه، فيأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لينيروا لعقولنا أحيازا مساحية أوسع ما كنا أن ندركها لولاهم، قال تعالى: ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾[الأحزاب: 46].

وهنا يأتي سؤال هل تكتفي عقولنا المحدودة وحدها للسير بنا في طريق التكامل وإيصالنا إلى مقام "الإنسان الكامل" من جميع الوجوه؟ والجواب: إن هذه المواطن كلها لا يستطيع العقل معرفتها بمفرده دون التعريف الإلهي وتنبيه الشارع الذي يتأتى عبر بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام. ولكن هل يعني هذا الموقف إقصاء للعقل وحطا من قيمته مع أنه مناط التكليف في الإنسان؟ وهل أن إثبات النبوة يكون على حساب العقل؟ يجيب ابن العربي بأنه يمكن الجمع بين النبوة والعقل من ناحية أن الوحي يكمل نور العقل، فالأمر الإلهي يضيء للعقل سبيله، إذ طريق السعادة في الدنيا والآخرة هو الوحي والعقل معا. ومن ناحية أخرى يأتي دور النبوة حتى تقوم لله بالرسل عليهم الصلاة والسلام الحجة على البشر يوم القيامة[3].

طبعا وكما ظهرت الوظيفة المعرفية للإنسان الكامل من خلال النبوة والرسالة فهي تظهر كذلك من خلال الولاية، وإذا كانت النبوة والرسالة قد انقطعت فإن مقام الولاية لا ينقطع أبدا؛ فحقيقة الولاية عند ابن العربي أنها نعت إلهي، لأنها من الاسم الإلهي "الولي"، فهي باقية لا تتصرم بخلاف الرسالة التي تنقطع في الدنيا والآخرة. والولاية للعبد خُلق لا تخلق لأنها تحصل من الله تعالى تفضلا. فالولاية بذلك هي الفلك المحيط الجامع للكل. ولا يعني هذا الكلام بأي حال من الأحوال تفضيل الولاية على النبوة والرسالة، فالمقارنة عند ابن العربي ليست بين مطلق الولاية ومطلق النبوة، بل إنها مفاضلة بين الولاية والنبوة في النبي نفسه، وكذلك في الرسول. يقول ابن العربي في هذا المعنى: "فهو صلى الله عليه وسلم من كونه وليا وعارفا أعلى وأشرف من كونه رسولا، وهو الشخص بعينه، واختلفت مراتبه، لا أن الولي منا أرفع من الرسول، نعوذ بالله من الخذلان"[4]. "لا أنّ الولي التابع له أعلى منه، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبدا فيما هو تابع له فيه، إذ لو أدركه لم يكن تابعا له فافهم"[5].

---

[1]- المرجع السابق، ص84.

[2]- ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص87.

[3] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص570.

[4] - ابن عربي، كتاب القربة، ضمن رسائل ابن عربي، ج1، ص9. أنظر: عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص578.

[5] - ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج1، ص135. أنظر: عبد الوهاب فرحات، المرجع السابق، ص578.

ويؤكد الشيخ محيي الدين بن العربي في نصوص أخرى كثيرة أن وحي التشريع قد انقطع بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ادعى مثل ذلك "فقد كذب، بل كذب وكفر"[1]. ونجد ابن عربي في هذا الإطار يحرص كل الحرص على التأكيد أن ما يأتي به الأولياء من المعارف والعلوم لا ينبغي أن يعارض ما جاءت به الشريعة "فإن خرج أحد من ذلك فليس بعلم (...)، بل إذا حققته وجدته جهلا"[2]. ويقول ابن العربي شعرا[3]:

لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنباء عن الله

ويقول أيضا:

ما نال من جعل الشريعة جانبا شيئا ولو بلغ السماء مناره

فدائرة الولاية عند ابن العربي تتسع فتشمل الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وذلك أخذا من الآية الكريمة:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء:69]. وتتسع الولاية التي هي عند ابن العربي نعت إلهي فتشمل كُمَّل النوع الإنساني، وهم "الأقطاب والأئمة والأوتاد يحفظ الله بهم العالم"[4]. ويصفهم ابن العربي شعرا فيقول:

إذ كل غيب لهم شهادة وكل حال لهم عبادة[5]

وكما يقول أحد الباحثين[6]: "ما أعمق وأدق هاتين الصفتين الجامعتين المانعتين؛ فكل ما في عالم الغيب بالنسبة لهم شهادة. وكل حال لهم مهما كان يعدّ قربة لله وعبادة. كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام:162]. فمقام الولاية عند الشيخ الأكبر يعدّ "أعم فلك إحاطي"[7]، والأولياء جميعا "شرفهم أن لا يبرحوا من مقام العبودية"[8] فالعبودية حقيقتهم، وتراهم يستمدون من الحق، ويمدون الخلق، كما أشرنا إلى ذلك سلفا، ولكن بلطف ولين ورحمة لا بعنف ولا شدة ولا قهر.

ويذهب ابن العربي إلى القول إنه إذا كان هناك خاتم للأنبياء ينتهي به دور النبوة، فكذلك هناك خاتم للأولياء يكون في آخر دور الولاية، وهذا الخاتم كما يؤكد ذلك الشيخ عبد الباقي مفتاح في العديد من كتبه أنه الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي نفسه. ودور هذا الختم المحمدي هو حفظ الولاية وعلومها من أن يدخل إليها من ليس بأهلها، وأن يعتدي على مكانتها أصحاب الدعاوى والأغراض، وحفظ أسرارها. ومن هذا المنطلق فابن العربي باعتباره ختم الأولياء هو نصير للدين، وقد جعل من مهماته الأساسية النصح لله ولرسوله وللمؤمنين، فظل يؤرقه أن الفقهاء والمتكلمين والحكام وإن حافظوا عل شكل الإسلام في بعده الظاهري فإنهم سلبوه روحه وجوهره وباطنه الروحاني الإحساني. كما ظل يشعر بالمسؤولية أمام هذا الزيف الذي يوشك أن يغطي بحجبه الكثيفة على الحقائق الإسلامية الصحيحة مما ضاعف لديه الشعور بمسؤولية النصح، ولكنه ناصح لا ككل الناصحين فهو ناصح مأمور مشدد عليه في النصيحة[9].

---

[1] - نقلا عن: عبد الوهاب فرحات، المرجع السابق، ص582.

[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] - أنظر: عبد الباقي مفتاح، الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ص4.

[4] - ابن اعربي، الفتوحات المكية، السفر الحادي عشر، ص266.

[5] - المرجع نفسه، ص332.

[6] - زكي سالم، الاتجاه النقدي عند ابن عربي، ص211.

[7] - ابن اعربي، الفتوحات المكية، السفر الحادي عشر، ص389.

[8] - المرجع نفسه، ص488.

[9] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص588.

يمكن القول بأن الولاية في التصوف تمثل ثمرة الالتزام بالشريعة وهي التي تمنح صاحبها المعرفة بالحقائق والمعارف الإلهية التي يستمدها من الله تعالى، من خلال سلوكه في طريق المقامات وقطعها، وبذلك فهي مدار التصوف وغايته. ومن هذا الاعتبار أولى كبار المتصوفة الولاية اهتماما خاصا، حيث يذهب ميشال شودكيفيتش إلى القول: "إذا رجعنا إلى الولاية في الإسلام فإننا نجد ملامح هذا المفهوم وقسماته إنما تتحدد على يد ابن عربي، ومن خلال أنظاره وتصوراته"[1]، "فهي بمثابة حجر الزاوية في كل كتابات ابن عربي"[2].

وعلى ذلك فالناس عند ابن العربي خلقوا للكمال، وما صرفهم عن ذلك الكمال "إلا علل وأمراض طرأت عليهم إما في أصل ذواتهم، وإما بأمور عرضية"[3]. فبالإنسان كَمُل الكون، وما كَمُل الإنسان بهذا العالم[4].

3.4-الوظيفة الأخلاقية للإنسان الكامل:

إن الوظيفة الأخلاقية للإنسان الكامل بارزة وواضحة جدا من خلال لفظة "الكامل" المضافة إلى الإنسان، والتي تشير إلى دلالة قيمية. فالفارق بين الإنسان الحيوان والإنسان الكامل فارق في درجة التخلق والوعي بالصورة الإلهية، ولذلك كان ابن العربي يؤكد أن التصوف كله أخلاق، فمن لا أخلاق له لا تصوف له. وما هذه الصورة الإلهية التي يعي بها الإنسان الكامل نفسه إلا حقيقة الأسماء الحسنى. والوعي بالصورة الإلهية عند ابن العربي لا مجال فيه للمخالطة بين الذات الإلهية والذات الإنسانية، بل يكون بين حقائق الإنسان وحقائق الألوهة المتمثلة في الأسماء الحسنى. وفوق ذلك فإن الوعي والتحقق بالصورة الإلهية ليس عملا ميسورا، وإنما يحتاج إلى تهذيب خلقي وصفاء نفسي ومجاهدة روحية بالإضافة إلى النموذج الذي يتمثل في الإنسان الكامل. ولذلك كان من خصائص الأنبياء والرسل صلوات الله سلامه عليهم وورثتهم من العلماء الأولياء من أهل الله تعالى هو تزكية الأنفس وقيادة الأرواح في سيرها إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة:2][5]. فالمعرفة بالله تعالى وبالحقيقة تقتضي روحانية عالية قد لا يحوزها إلا بالإنسان الكامل، معرفة مرتبطة بالمحبة، والمحبة سرّ إلهي[6].

ويصوغ ابن العربي هذه الوظيفة للرسل عليهم السلام وبالأحرى لورثتهم من بعدهم المتمثلين في الكاملين من الناس فيقول: "اعلم أنه كما يقال في الطبيب إنه خادم الطبيعة، كذلك يقال في الرسل (...) أنهم خادموا الأمر الإلهي في العموم، وهم في نفس الأمر خادموا أحوال الممكنات، وخدمتهم من جملة أحوالهم التي هم عليها في حال ثبوت أعيانهم"[7]. فابن العربي في هذا النص يقيم موازاة بين الطبيب وعلاقته بالمزاج الطبيعي للبدن الإنساني وبين الرسول وعلاقته بأحوال المخلوقات التي هي محل التكليف؛ فالرسل، صلوات الله عليهم وسلامه عليهم، خدم النفوس الإنسانية من أجل تخليصها من الرذائل وتحليتها بالفضائل، كما أن الأطباء خدم الأمزجة الطبيعية، غير أن كلا منهما لا تكون وفق أغراضه ومتطلباته، وإنما يكون لما يصح به المخدوم حتى ولو كان غير ملائم للغرض[8]. فمن وظائف الإنسان الكامل أنه يوجد أساسا من أجل مصلحة الجماعة، فهو الذي

1- ميشال شودكيفيتش، الولاية، ص45.

2- المرجع نفسه، ص79.

[3] - ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، 410.

[4] - زكي سالم، الاتجاه النقدي عند ابن عربي، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية 2005م، ص208.

[5] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص593.

[6] - محمد المنصف بن البشير، فلسفة اب عربي في المعرفة والوجود، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016، ص327.

[7] - ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق: أبو العلا عفيفي، ج1، ص97.

[8] - عبد الوهاب فرحات، نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، ص594.

يخلص المجتمع الإنساني من المفاسد والنقائص والشرور، وينطلق به إلى الفضيلة والكمال. فيكون مجتمعا ممثلا بحق لمجتمع السماء، كما يذهب إلى ذلك القائلين بالوظيفة الاجتماعية للإنسان الكامل[1].

وينقل أحد الباحثين عن ابن عربي في أحد رسائله جملة من أوصاف الإنسان الكامل، حيث يلخصها في قوله: "الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة، ولم تشِنه رذيلة، وهذا الحد قلَّما ينتهي إليه إنسان، وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه بالناس؛ فإن الإنسان مضروب بأنواع النقص، مستول عليه وعلى طبعه ضروب الشر، فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة، ويحيط بكل فضيلة ومنقبة، إلا أن التمام وإن كان عزيزا بعيد التناول؛ فإنه ممكن، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان، ونهاية ما هو منتهى له، وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه، كان قمينا بأن ينتهي إلى غايته التي هي منتهى له، ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها"[2].

ولعلنا نلمس أكثر معنى هذه الوظيفة للإنسان الكامل في كلام الأستاذة كلود عداس عن الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي وهي تدافع عن ولايته عندما قالت عنه: "فالذي قرأ ابن عربي يعلم جيدا أن الأمة التي قال عنها محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شفيعها عند الله يوم القيامة، هي أمة لا تنحصر في الجماعة الإسلامية المعروفة تاريخيا، وإنما تشمل جميع البشر؛ فممّا لا يقبل التصوُّر بالنسبة لابن عربي أن يتقلَّص شعاع بركته على المسلمين فقط. إن ابن عربي كوارثٍ أعلى لذاك الذي أُرسل رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم لا يكفيه أن يكون منبع إلهام للأولياء، ومنبع معرفة للعارفين، وإنما يريد أن يكون منبع أمل لجميع المخلوقات"[3].

والحقيقة أن الوظائف الوجودية والمعرفية والأخلاقية كانت متمثلة في النبي صلى الله عليه وسلم، فكان مبلغ أحكام الدين ومعلمها والمنفذ الراعي الحكيم للأمة بسلطان الشرع والنبوة، فكان النموذج العملي الكامل يرشد النفوس ويقود الأرواح.

وخلاصة هذا الموضوع، كما يذهب إلى ذلك الشيخ عبد الباقي مفتاح، أنّ الجمعية الكمالية للإنسان المحمدي الكامل متطابقة مع جمعية القرآن العظيم، حيث يقول الشيخ الأكبر أنّ الختم المحمدي والقرآن أخوان، وذلك لتطابقهما مع الحقيقة المحمدية: "فمن أراد أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يدركه من أمته، فلينظر إلى القرآن، فإذا نظر فيه: فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكأن القرآن أنشأ صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فيكون محمد صلى الله عليه وسلم ما فقد من الدار الدنيا، لأنه صورة القرآن العظيم. فمن كل خلقه القرآن من ورثته، وأنشأ صورة الأعمال في ليل طبيعته، فقد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم من قبره. فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته: حياة سنته، ومن أحياه فكأنما أحيا الناس جميعاً، فإنه المجموع الأتم، والبرنامج الأكمل"[4].

خاتمة:

وهكذا نخلص في نهاية هذه المداخلة إلى القول أنّ منظور الشيخ عبد الباقي مفتاح فيما يتعلق برؤية الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي للمعنى الوظيفي للإنسان الكامل، تجد أصالتها في القول: أنّ الجمعية الكمالية للإنسان المحمدي الكامل متطابقة مع جمعية القرآن العظيم؛ من منطلق أنّ الختم المحمدي الكامل والقرآن الكريم أخوان لتطابقهما مع الحقيقة المحمدية. وهذا يفضي إلى أن الوظيفة الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم لبيانها للناس هي بالضبط التي تمثلها الإنسان

---

[1] - محمد المنصف بن البشير، فلسفة اب عربي في المعرفة والوجود، ص309.

[2] - طه عبد الباقي سرور، محيي الدين بن عربي، مؤسسة هنداوي 2017، ص169.

3- كلود عداس، ابن عربي سيرته وفكره، ترجمة أحمد الصادقي، مراجعة وتقديم سعاد الحكيم ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي 2014م، ص444.

[4] - عبد الباقي مفتاح: "الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، ص12. ابن العربي، الفتوحات المكية، الباب 366.

الكامل، ولا أدل على ذلك من قول السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: "كان خلقه القرآن". هذا وقد خرجت هذه الورقة البحثية ببعض النتائج هي كالآتي:

1-إنّ الكثير من الباحثين المحدثين، عند الشيخ عبد الباقي مفتاح، يدرسون نصوص الشيخ الأكبر من منظور فلسفي بعيد عن عرفان أهل التحقيق. وهذا الذي أوصلهم إلى نتائج تخالف الإلهام الرباني والتحقق الذوقي الروحاني الكشفي الذي عليه أهل الله تعالى. فالفارق جدّ بعيد بين من يري الشيخ الأكبر فيلسوفا أفرز فكره نظريات فلسفية، وبين من يراه أحد أكبر المحققين من أولياء الرحمن، بل ربما أكبرهم على الإطلاق، الذي كتب تراثه العرفاني الشاسع بإلهام ربّانيّ وتحقق ذوقي روحاني وكشف إلهي لا بتخمينات فكرية.

2-يؤكد الشيخ عبد الباقي مفتاح أنّ حقيقة "الإنسان الكامل" عند ابن العربي وكبار العارفين من أولياء الله تعالى ليست فكرة بشرية خضعت للتطوّر، وإنما هي حقيقة وجودية "فوق الزمان"، ومساقطها عبر تاريخ البشر في الأرض تتمثل في سلسلة الأنبياء والرّسل والخلفاء الرّبانيين والأقطاب وكمّل الحكماء الإلهيين؛ وعلى مدارها يجري تاريخ الإنسانية، بل سيرورة الوجود بكامله، مرتبطة بها من الأزل إلى الأبد، وهي نتيجة سلوك شرعي، وفتح رباني في الفهم في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

3-إن موضوع الإنسان الكامل، كما يرى الشيخ عبد الباقي مفتاح، يعدّ قطب الرحى في رؤية الشيخ محيي الدين ابن العربي؛ ذلك أن الإنسان الكامل يمثل عنده مركز الوجود الذي تدور من حوله المخلوقات والعالم كله؛ وهو الحافظ للعالم، والعَمَد الواصل بين السماء والأرض، وله البرزخية العلمية المعرفية، حيث يتلقى من الحق تعالى الإمداد، ويمدّ كلّ مخلوق وفق ما لديه من الاستعداد، وصفة "الكامل" المضافة له ذات دلالة قيمية على الوظيفة الأخلاقية له، ولذلك كان ابن العربي يؤكد أن التصوف كله أخلاق، فمن لا أخلاق له لا تصوف له. وما هذه الصورة الإلهية التي يعي بها الإنسان الكامل نفسه إلا حقيقة أسماء الله الحسنى.

4-يذهب الشيخ عبد الباقي مفتاح إلى القول أنّ ابن العربي وكبار العارفين بالله تعالى، لا يختلفون إطلاقا في أن الإنسان هو محور كل عمل وهو مدار أي تغيير، وفعل كوني يراد إنجازه. وهم يؤكدون أننا إذا أردنا أن نصنع شيئا في العالم، فلنصنع التغيير أولا في الإنسان؛ فالإنسان الكامل المشروع المطلوب هو نقطة البداية وهو أيضا نقطة النهاية، كما جاء في الأثر النبوي: "من عرف نفسه عرف ربه".

5-إنّ الوظائف الوجودية والمعرفية والأخلاقية للإنسان الكامل التي حاولنا استجلاءها في محاولتنا هذه، في إطار منظور الشيخ عبد الباقي مفتاح للرؤية الأكبرية، تتمثل كلها رأسا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو غاية الوجود وسرّ العالم وهو القرآن المحكم، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم للإنسان الساعي للكمال سراجا منيرا يكشف ظلمات الوجود الإنساني بنوره الإلهي.

التوصيات:

إن من أهم التوصيات التي يمكن أن نذكرها من خلال هذه الورقة هو ضرورة التفات الباحثين والمهتمين بالتراث الأكبري إلى الجانب التجديدي الذي أثاره وطرحه بوضوح الشيخ عبد الباقي مفتاح في دراساته الكثيرة عن ابن العربي، ألا وهو المرجعية القرآنية ودورها في فهم نصوص ابن العربي، وتطبيق ذلك على كل المسائل التي تناولها ابن العربي ومنها قضية الإنسان الكامل.

المصادروالمراجع:

1-بدوي، عبد الرحمن

- الإنسان الكامل في الإسلام، ط2، الكويت، وكالة المطبوعات 1976.

2-بن البشير، محمد المنصف

- فلسفة اب عربي في المعرفة والوجود، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016.

3-الترمذي، الحكيم

-ختم الأولياء، تحقيق: الشيخ عبد الوارث محمد علي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية 1999م.

4-الحكيم، سعاد

-المعجم الصوفي، ط1، بيروت، دار دندرة 1986.

5-خوجه، لطف الله بن عبد العظيم

-الإنسان الكامل في الفكر الصوفي عرض ونقد، ط1، الرياض، دار الفضيلة 1429هـ-2009م.

6-سالم، زكي

-الاتجاه النقدي عند ابن عربي، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية 2005م.

7-سرور، طه عبد الباقي

- محيي الدين بن عربي، مؤسسة هنداوي 2017، ص169.

8-شودكيفيتش، ميشال (علي عبد الله)،

-الولاية والنبوة عند ابن عربي، ترجمة: أحمد الطيب، ط1، مراكش، دار القبة الزرقاء 1999.

9-عبد الوهاب فرحات، عبد الوهاب

-نظرية الإنسان عند محيي الدين بن عربي، أطروحة دكتوراه، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2003-2004.

10-عداس، كلود (هند)

-ابن عربي سيرته وفكره، ترجمة أحمد الصادقي، مراجعة وتقديم سعاد الحكيم ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي 2014م.

11-ابن عربي، محيي الدين (الشيخ الأكبر)

-الفتوحات المكية، بيروت، دار صادر (د.ت) [04 أجزاء].

- الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (1985-1999).

- الفتوحات المكية، تصحيح: أحمد شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية 1999. [09 أجزاء].

- فصوص الحكم، تحقيق وتعليق: أبو العلا عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي 1980.

- الميزان في حقيقة الإنسان، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ط1، إربد-الأردن، دار عالم الكتب الحديث 2021.

- كتاب التراجم، تحقيق موفق فوزي الجبر، ط1، دمشق، دار الحكمة 2000.

12-كليب، سعد الدين

-البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي، دمشق، وزارة الثقافة 1997.

13-مفتاح، عبد الباقي

-"الإنسان الكامل عند الشيخ محمد محيي الدّين ابن العربي"، مقال مخطوط.

- الشرح الشامل لكتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر للشيخ عبد الكريم الجيلي، ط1، دمشق، دار نينوى 2019.
- الكمالات المحمدية والإنسان الكامل في رؤية ابن العربي، ط1، إربد-الأردن، عالم الكتب الحديث 2016.
- الكشف الأتم لكتاب مفاتيح فصوص الحكم لابن العربي، ط1، دمشق، دار نينوى 2021م.